

(The Aviator)...

حين يصبح الوسواس القهري جناحين للتحليق



في قلب معركة هاورد هيووز مع نفسه، لم تكن القصة مجرد صراع نفسي، بل تجسيدًا لحقيقة إنسانية عميقة: المعاناة ليست نقيض النجاح، بل قد تكون قوته الخفية، الفيلم لا يروي سيرة رجل ناجح فحسب، بل يرسم مسار إنسان عاش الإضطراب ليتعلم منه كيف يتجدد ويتبدل، حتى صار تحوله أشبه بولادة جديدة، من هوس بالتفاصيل إلى إتقان صنع المستقبل، يُبرز المخرج سكورسيزي هذه المعادلة عبر مشاهد متقنة، مستخدمًا الكاميرا كأداة لتشريح العبقرية في لحظات انهيارها.



إن إصرار سكورسيزي على تصوير تفاصيل الوسواس بلغة بصرية شاعرية، وتجسيد ديكابريو للإنهيارات التي تسبق الولادات الكبرى، يؤكد أن التحليق الحقيقي يبدأ غالبًا من نقطة لا يرى فيها الآخرون سوى الهاوية، وإن كان الفيلم يغفل أن العلاج كان يمكن أن يختصر المسافة.

"وإذا فقدت صوابي، سيكون كالطيران دون رؤية.." بهذه المقولة يطرح الفيلم سؤالًا أعمق: كم منا يستطيع أن يحوّل اضطرابه الداخلي إلى بوصلة نحو الأعلى، لا إلى السقوط؟

إنه عمل سينمائي لا يُنسى، يستحق أن يُصنف بين أعظم ما قدمته السينما الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، لما يمتلكه من جرأة في الطرح وإتقان في الصنعة وعمق في النظرة إلى النفس البشرية.

هيووز لم يتخلص من وسواسه، بل وظفه، الطيار الذي ثبت أن الوسواس ليس مرضًا حين يُوجه، بل قد يكون أعلى درجات الذكاء، إذا صار أداة دقة وإتقان.

في مشهد تحطّم الطائرة النموذجية، يُجسّد أداء ليوناردو ديكابريو القلق المتطرف الذي يتحول لاحقًا إلى تصميم لا يلين؛ فكل طائرة صممها حملت بصمة خوفه من الخطأ، وكل فيلم أنتجه عكس إصراره على الكمال، سكورسيزي يكرر لقطة الأيدي المرتعشة أثناء غسل المقابض، مثبتًا أن الطقوس القهرية ذاتها هي التي منحتة إحكامًا مهنيًا فائقًا، إنه يصنع من معاناته جناحًا، ويقود بضعفه نحو الأعلى.

لكن بعض من غيابات الحقائق النفسية أفقدت من دقة وتصوير الفيلم بشكل أفضل، حيث يُظهر الفيلم نوبات الوسواس القهري بشكل درامي مبالغ فيه يغلب عليه الطابع البصري الصادم على حساب الدقة النفسية، إذ يُصوّر الأعراض وكأنها قدر محتوم لا يُقاوم، متجاهلاً تمامًا إمكانية العلاج النفسي الذي يُجدي ويُحسن الحالة بشكل كبير، كما أن السرد يهمل حقيقة أن المرض النفسي بطبيعته لا يدوم غالبًا إذا خضع للتدخل العلاجي المناسب، مما يعطي انطباعًا بأن المعاناة الأبدية هي الثمن الحتمي للعبقرية.

الفيلم يقدم حقيقة موضوعية بأن للأشياء السلبية وجهًا آخر إيجابيًا، لا يدركه المرء إلا بمرور الزمن. هيووز وصل إلى القاع من أعلى مسافة تحليق، وكان الإختبار هل يتجاوز أم يثبت؟ لكنه إختار التحليق أعلى، ليؤكد أن الإنسان قادر على التحليق وأغلاله في قدميه.

